٣ ـ المعانى الافلاطونية عند المعتزلة*

للاستاذ محمود الخضيرى
عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

نشأة الكلام فى الاسلام

كتب موسى بن ميمون (١٢٠٤ م) وهو يؤرخ علم الكلام : « إن أول ابتداء الإسلام بهذه الطريقة [أى علم الكلام] كانت فرقة ما ، وهم المعتزلة » (١) . وكذلك جاء فى مخطوط عربى فى المكتبة الأهلية بباريس، يرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨١٧ من الهجرة، تحت عنوان أول من صنف فى الكلام : « أبو حذيفة واصل بن عطاء . . . لم يعرف فى الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدين ، وعلى طبقات الخوارج ، وعلى غالية الشيعة والمشابهين فى قول الحشوية ، قبل كتب واصل بن عطاء الخ . . . » (٢)

والواقع أنه لما كان المعتزلة يعيشون فى وسط ثقافى ، لم تنفصل فيه الأفكار الفلسفية عن التصورات الدينية ، فإنهم لم يتوانوا فى أن يبدأوا فى الإسلام هذه الخطة ؛ وكان عليهم إذاً أن ينظروا فى المسائل الفلسفية الكبيرة بعون القرآن ومدده ؛ ومما يثبت أنهم كانوا فلاسفة قبل كل شىء ، أنهم لم يفعلوا العكس ، أى أن القرآن لم يكن محور مقالاتهم ومبدأ آرائهم ، وإن كانوا يستشهدون بآياته فى أحايين كثيرة ، ثم إنهم لم يضحوا مع ذلك بعقيدتهم ؛ وفى هذا يتنازون عن المتكلمين الذين جاءوا من بعدهم ، والذين كانوا يرفعون أصول العقيدة فوق متناول العقل (٣) ؛ والذين لم يكونوا يتعاطون الفلسفة إلا وهم بادئون من الايمان كما يبدأ بالمقدمات ، ثم ينتهون إليه بعد كل شىء كما ينتهى إلى النتائج ؛ ولكى نبين مدى المناسبات والخلاف بين المعتزلة والمتكلمين ، نكتفى بأن نورد هنا بعض ملاحظات على أصل كلمة « كلام » باعتبارها اصطلاحاً فنياً ، وسوف تعيننا هذه الملاحظات على أن نثبت أن المعتزلة هم مؤسسو علم الكلام الذى يشتمل على الفلسفة الحقيقية للاسلام .

---

* رابع عددى أغسطس وأكتوبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة »

(١) دلالة الحائرين ج ١ ص ٩٤ وجها

(٢) كتاب الاوائل للعسكرى (أبى هلال الحسن الخ) رقم ٥٩٨٦ من القسم العربى (الخزانة المجديدة) ص ١٩٥ ظهرا .

(٣) الفارابى : احصاء العلوم ، طبعة عثمان أمين ، القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٧٢ الى ص ٧٦ ، وابن خلدون : المقدمة ، الطبعة المذكورة سابقا ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠

يعرف علم الكلام بأنه «صناعة يقتدر بها الانسان على : نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل »[١] ؛ وبتعريف آخر : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ؛ ومر هذه العقائد هو التوحيد »[٢]

ولكن ! أى علاقة بين علم هذا موضوعه ، وبين الاصطلاح الذى يدل عليه ؟

إن المعنى الأول لهذا الاصطلاح هو المعنى الشعبى المعروف ، ثم توسعت دلالة الكلمة فأصبحت تطلق على «النظر» أو «البحث» بمعنى عام ؛ وعلى هذا النحو يتكلم المرتضى عن «كلام» الطبقتين الأولى والثانية من المعتزلة ، أى عن كلام الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عباس وأبناء على بن أبى طالب[٣] ؛ ثم إن الكلمة أخذت بعد هذا معنى الجدل والمناقشة ؛ ومن هنا يذهب بعض مؤرخى علم الكلام إلى أن لفظ «الكلام» مشتق من أصل آخر، وهو « كلم » بمعنى جرح[٤] ؛ وذلك لأن هذا العلم كان يرمى قبل كل شىء ـ حسب زعم هؤلاء ـ إلى نقض حجج الخصوم وإظهار بطلانها ؛ ومن هنا يتصور « الكلام » كمنهج يقابل «المنطق» عند الفلاسفة ؛ والكلمتان تدلان فى الأصل فى اللغة العربية على معنى واحد .

ونحن نعلم من جهة أخرى أن من المسائل التى بدأت تشغل الفكر الاسلامى مسألة كلام الله . أى القرآن ، ومعرفة ما إذا كان مخلوقاً محدثاً أم قديماً أزلياً ؛ ولما كان هذا أهم الموضوعات التى دارت حوله الخلافات والمناقشات الدينية فى ذلك العصر ، فربما كان هذا هو السبب الذى من أجله سمى العلم الذى كان يبحث فى كلام الله «علم الكلام »[٥] .

نحن نرى من ذلك أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام على كل حال ؛ ونستعين فى ذلك بالشهرستانى الذى يقول: «إن المعتزلة بعد أن طالعوا كتب الفلاسفة ، أفردوا مناهج الكلام فناً من فنون العلم وسموه باسم الكلام »[٦] .

وكذلك يسميهم الخياط المعتزلى (المتوفى ٣٠٨ هـ ـ ٩٢٠ م تقريباً): «أرباب الكلام»[٧]؛ وكذلك يقول المرتضى ، كما ذكر اسم معتزلى ، « إنه كان من أعلم أهل الكلام » .

(١) الفارابى : الكتاب المذكور ، ص ٧١ (٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٦٣ . (٣) نقلا من كتاب الملل والنحل ، ص ١ الى ١٢ (٤) النسفى : العقائد . طبعة استامبول . ص ٧ (٥) الشهرستانى . الملل والنحل . الطبعة المذكورة سابقا ج ١ ص ٣٢ ، والنسفى : العقائد ص ٦ (٦) الشهرستانى : الكتاب المذكور . فى نفس الصفحة .

(٧) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد نشره الدكتور نيبرج Nyberg . القاهرة سنة ١٩٢٥ . ص ٥٠

وإنما أصبح اسم المتكلمين يطلق فيما بعد على خصوم المعتزلة ممن يجمعون إلى الاشتغال بعلوم الدين الخبرة بمسائل الفلسفة ، وهذا ما يلخصه الأستاذ (ده بور De Boer) الهولندى بقوله : « أصبح اسم المتكلمين ـ الذى كان يطلق فى بادىء الأمر على كل النظار Dialektiker على العموم ـ يفضل إطلاقه فيما بعد على خصوم المعتزلة ، وأهل السنة من رجال الدين »(١)

وهذا التطور تابع لتطور عام فى تاريخ الاسلام ، وذلك أن الزمن الذى أعقب عصر المعتزلة كان عصر انحطاط فكرى واجتماعى ، وإذ ذاك هجر الناس النظر فى علم مابعد الطبيعة ، والاستعانة به فى فهم أصول الدين ، وإذا لجأوا إليه فانما لغرض عملى هو « حصول ملكة راسخة فى النفس يحصل عنها علم اضطرارى للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية »(٢) أى « العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها ، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها ، إذ لا فاعل غيره ، وكلها ترتقى إليه وترجع إلى قدرته »(٣) .

وهذا النوع من الزهد فى البحث العلمى ، واليأس من كفاية العقل يختلف كل الاختلاف عن الروح الفلسفية التى أشرب بها المعتزلة الذين سنتولى دراستهم ، تلك الروح التى لا تضع للعقل الانسانى حدوداً تتقيد بها حريته .

ولسنا نطمع الآن فى أن نكتب موجزاً وافياً لتاريخ علم الكلام ، وإنما أوردنا ما كتبناه من مقدمات عامة ، لنبين موقف المعتزلة التاريخى فى تأسيس تلك الحركة الفكرية الهائلة ، وسنجتهد فى الصفحات التالية أن نعرض بايجاز الخصائص المذهبية العامة للمعتزلة .

الخصائص المذهبية للمعتزلة

ليس من المستطاع أن نجد لدى جميع المعتزلة مذهباً واحداً متماسك الاجزاء يشترك الكل فى القول به ، وذلك لأن شيوخهم عاشوا فى عصر تأدت إليه كل الثقافات السابقة شرقية وغربية ، ثم لأنهم كانوا مأخوذين بروح النقض ، وهدم حجج الغير سواء من المعتزلة أم من غيرهم ، ومثال ذلك أنهم لا يتفقون فيما بينهم على مذهب واحد فى موضوع الجزء الذى لا يتجزأ

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الاسلام Geschichte der philosophie im Islam ترجمة بالفرنسية سنة ١٩٠١ ص ٤٤

(٢) ابن خلدون : المقدمة : ٣٦٦ . ومعنى التوحيد فى الاسلام على العموم ، هو كما يعرفه السيد الشريف الجرجانى : « معرفة الله تعالى بالربوبية والاقرار بالوحدانية وتنفى الاشتراك عنه جملة » كتاب التعريفات ـ طبعة استامبول ص ٤٨ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٥ .

إذ أن فريقاً منهم يستعين بهذا المذهب ليفسر به كل الظاهرات ؛ ثم إن فريقاً آخر يتبع أنكساغوراس (Anaxagoras) ؛ ويميل فريق ثالث ميل أرسطوطاليس كما سنبينه فيما بعد .

على أن لهم أصولا مشتركة ؛ بحيث لا يطلق على مفكر إسلامى اسم الاعتزال حتى يقول بها جميعاً ، ولكن هذه الأصول ليست إلا جزءاً صغيراً من مجموع آرائهم ومقالاتهم ؛ إذ أنها لا تتجاوز تحديد موقفهم أمام بعض المسائل الدينية الكبيرة .

كتب الخياط المعتزلى : « ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا كملت فى الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى » (١) . وكذلك كتب الأشعرى (٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م) : « فهذه أصول المعتزلة الخمسة التى يبنون عليها أمرهم، قد أخبرنا عن اختلافهم فيها ؛ وهى التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين وإثبات الوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (٢) .

وكذلك يذكر الخياط عناوين مسائل ؛ ويؤكد أن المعتزلة اختصوا بالنظر فيها، مثل : « الكلام فى فناء الأشياء وبقائها، والقول فى المعانى ، والكلام فى المعلوم والمجهول، والكلام فى التولد ، والكلام فى إحالة القدرة على الظلم ، والكلام فى الجائسة والمداخلة ، والكلام فى الإنسان والمعارف » ؛ وهذه رءوس مسائل فلسفية ، سوف نشرح قول المعتزلين فيها، ونبين قيمتها وعلاقاتها بالمذاهب الاغريقية ؛ ثم إن الخياط يضيف إلى ماسبق قوله : « لا تجد على أحد من المعتزلة ، فى هذه الأبواب التى ذكرتها حرفاً واحداً إلا لمن خالفه فيه من المعتزلة ، فأما لغير المعتزلة فلا تجد حرفاً واحداً من هذه الأبواب إلا لانسان سرق كلاماً من كلام المعتزلة فأضافه إلى نفسه (٣) » ؛ وكذلك نجد فى موضع آخر بمناسبة أبى الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ـ ٨٤٩م) : « إن الكلام فى ما كان وفى ما يكون وفى الكل وفى البعض وما يتناهى وما لا يتناهى من غامض الكلام ولطيفه ؛ وإنما كان أبو الهذيل يكثر ذكره والكلام فيه لشدته ولعنايته به ، ومن بعد فهل يعرف فى الأرض فصل بين هذين الكلامين إلا للمعتزلة ؟ » (٤) .

---

(١) الانتصار : ص ١٢٦ ـ ١٢٧

(٢) الامام أبو الحسن على بن اسماعيل الاشعرى : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، عنى بتصحيحه الاستاذ هـ : رتر (H . Ritter) من منشورات جمعية المستشرقين الالمانية . استانبول ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ م ج ١ ص ٢٢٨ .وسنشير فيما بعد الى هذا الكتاب المهم بقولنا : الاشعرى : مقالات

(٣) الانتصار ؛ ص ٧ ؛

(٤) نفس الكتاب ، ص ١٣ .

وتبين لنا هذه العناوين التي تشير إلى مسائل نظر فيها المعتزلة ، أنهم درسوا الفلسفة من جميع وجوهها ؛ وإذا تصفحنا عناوين الكتب التي سنوردها فيما بعد عند كلامنا عن مؤلفيها ببعض التفصيل ، تلك الكتب التي ضاعت لسوء الحظ ، فاننا نستطيع أن نجزم بأن فلسفة المعتزلة كانت من كمال التوسع ونظام الترتيب مثل فلسفة الفلاسفة الاسلاميين ، الذين جرت العادة في اللغة العربية على أن يختصوا بهذا الاسم ذي الأصل الاغريقي ، ومن ناحية أخرى فاننا سوف نرى في مذاهبهم حظاً أوفر من إصالة الفكر وحرية التأليف والابتكار ، وهم يستعيرون من الاغريق والهنود والفرس آراء كثيرة ، لكنهم إنما يستعينون بها لتشييد مذاهبهم الخاصة بهم ؛ وسنجتهد الآن أن نشرح ما أوردناه جملة من مذاهبهم المشتركة التي لا تنالها اختلافاتهم الفردية إلا في التفاصيل .

ا ـ التوحيد

أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء ، وأنه ليس بجسم طبيعي أو حيواني ، وأن ذاته ليست مؤلفة من جوهر ذي أعراض تدركها الحواس ؛ وأنه منزه عن أعراض المادة وخواصها ، وأنه بسيط يستحيل عليه التجزؤ ، لا يحيط به المكان ، ولا يجري عليه الزمان ، لا تحده الحدود والنهايات ، ولا تحيط به الكيات ، ولا يقاس بالناس ، تام الكمال ، لا يستطيع الوهم الانساني أن يتصور شبيهاً له ، وجوده أزلي ولا يشاركه في الأزل أحد ، تفرد بصفاته الالهية ، لم يخلق الخلق على مثال سابق ، ولم يعنه معين في خلقه ، لا تجوز عليه الغايات والنهايات ، ولا يناله ما ينال الناس من ألم وسرور ، إذ لا تدركه شهوات ولا يلحقه عجز أو نقص [1] ؛ وسنرى عند دراستنا لهذا المذهب عند بعض شيوخ المعتزلة مقدار علاقته بمذهب أفلاطون ، وإنما نكتفي الآن بالقول إن هذا التصور هو نقيض تصور الصفاتيين ، أي الذين يذهبون إلى أن للصفات الالهية وجوداً حقيقياً يشارك الذات في الأزلية ؛ وكذلك يناقض قول المشبهة الذين يتصورون الصفات الالهية على مثال الصفات الانسانية .

ب ـ العدل الالهي وحرية الارادة الانسانية

بينما يعرف أهل السنة العدل الالهي بأنه « التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم » ، إذ بأهل الاعتزال يعرفونه بأنه « ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار الفعل على وجه

(١) الاشعري : المقالات ، ج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ؛ والشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛

الصواب والمصلحة » (١) . وهم يقولون أيضاً : إن الله لم يخلق الكفر ولا المعاصى، ولا أفعال الخلق كلها ، وإنما وهب الناس « الاستطاعة » ، وهى قدرة على الفعل سابقة له(٢) ؛ وهم مع ذلك لا يتفقون على رأى واحد فى تصور هذه « الاستطاعة » ، وهل هى صفة أم عرض أم لازمة للانسان ؟ ثم إنهم يقولون أيضاً إن الله خلق فى الانسان ملكة لتمييز الخير من الشر ، وإن الناس يولدون جميعاً برءاء من السوء؛ وإنهم وحدهم هم الذين يعيبون حظهم الأخلاق والعملى (٣)؛ ونحن نعلم أن خصومهم ذهبوا بالعكس إلى أن الله قدر كل شىء قبل حصوله وأنه أمر وحدد « قسمة » كل إنسان ، وأن المرء لا يقدر على أن يغير مجرى الحوادث . ونقول بهذه المناسبة : إن المذهب الجبرى ليس المذهب الرسمى للاسلام ، وإننا نسلم قياد عقولنا إلى أوهام سابقة إذا اعتقدنا أن القرآن ينفى الحرية الانسانية ، ولاعبرة فى ذلك بالتاريخ السياسى للمسلمين؛ إذ أن الأمويين مثلا كانوا ينشرون الدعوة الجبرية، ويحاربون كل قول بحرية الارادة، ليهونوا على الرعايا احتمال ما أحدثوه من تغيير فى نظام الحكم ، مما استدعى فى أحايين كثيرة الخروج على ما عهده المسلمون حتى ذلك العهد ، وليضعفوا باسم الدين تقدير الحرية .

وقد ذهب مستشرقون أمثال ألفرد فون كريمر (Alfred von Kremer) وإجناس جولد سيهر (J. Goldziher) والأستاذ مكس هرتن (Horten)؛ إلى أن كلام المعتزلة فى حرية الارادة متأثر باحتكاك المسلمين بالمسيحية لا سيما فى سوريا (٤)، ولكننا نرى أن هذا التأثير لا يرجع إلى أصل دينى بحال من الأحوال ، وإنما يرجع إلى سبق المسيحيين إلى تعلم المذاهب اليونانية ، وسنرى فيما بعد بمناسبة النظام (٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م) إلى أى حد تأثر مذهب المعتزلة فى العدل بأفلاطون .

ومن رأى المعتزلة أن الله لا يقدر على صنع الشر ؛ وقد روى النسفى (٧١٠ هـ - ١٣١٠م) محاورة بين الجبائى المعتزلى (٣٠٣ هـ - ٩١٥ م) وتلميذه الأشعرى ، على أثرها هجر الأخير الاعتزال بعد أربعين سنة قضاها فى طلب العلم على الجبائى؛ كما يقول ابن عساكر. قال النسفى : « وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصى

---

(١) الشهرستانى : نفس الكتاب ج ١ ص ٤٩

(٢) الخياط : الانتصار ، ص ٧٨ وما بعدها . والاشعرى : المقالات ، ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها

(٣) الاشعرى : المقالات ، ج ١ ص ٢٢٧ وما بعدها

(٤) فون كريمر : تاريخ ثقافة الشرق فى عهد الخلفاء (Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen) فى مجلدين ، فينا ١٨٧٥ - ١٨٧٧ ، ج ١ ص ٧ . وجولد سيهر: محاضرات عن الاسلام ، القسم الثالث . و هرتن : المذاهب . ص ١٠٩

على الله تعالى، ونفى الصفات القديمة عنه ؛ ثم إنهم توغلوا فى علم الكلام وتشبثوا بأذيال الفلاسفة فى كثير من الأصول ؛ وشاع مذهبهم فيما بين الناس، إلى أن قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى لأستاذه أبى على الجبائى : « ما تقول فى ثلاثة أخوة مات أحدهم مطيعاً والآخر عاصياً والثالث صغيراً ؟ فقال : الأول يثاب بالجنة، والثانى يعاقب بالنار، والثالث لا يثاب ولا يعاقب ؛ قال الأشعرى: فإن قال الثالث : يا رب لم أمتنى صغيراً، وما أبقيتنى إلى أن أكبر فأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة ؟ فقال : يقول الرب إنى كنت أعلم منك، لو كبرت لعصيت فدخلت النار ؛ فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً . قال الأشعرى: فإن قال الثانى : لم لم تمتنى صغيراً لئلا أعصى لك أمراً فلا أدخل النار ؛ ماذا يقول الرب ؛ فبهت الجبائى وترك الأشعرى مذهبه، واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأى المنزلة وإثبات ما وردت به السنة ... الخ »[1].

[باريس] محمود محمد الخضيرى

(١) النسفى : العقائد ، طبعة استانبول ص ٨ و ٩ . وكذلك يشير الشهرستانى إلى تلك المناظرة إشارة موجزة فى ج ١ ص ٣٦

أنا والحب العذرى

هو دتنى خفر الموانيق ، مى منذ كانت ومنذ كنت صبيا
ما كأنى من عاشقيها وممن بلغوا فى الهوى مكاناً قصيا
إنها لا ترى الوفاء وإنى لم أكن فى الغرام إلا وفيا
لست أدرى ماذا جنيت، وحبى كان فيها ولم يزل عذريا ؟
ميتة ، قلبها حديد ومن لى من يلين الحديد ملياً وليا ؟

* * *

أحلال يا مى خفر عهودى وغرامى ما كان شيئاً فريا ؟
أنت أشقيتنى وفيك ولوعى أو ترضين أن أعيش شقيا ؟
كل ما فى الحسان فيك وكل الحب فى العاشقين يا مى فيا
عرى هواى فيك ، وغدر بغرامى أن تهجرينى مليا
ليتنى ما خلقت فى العرب صباً لا ، ولا كنت فى الهوى عربيا

توفيق أبو المحاسن اليعقوبى